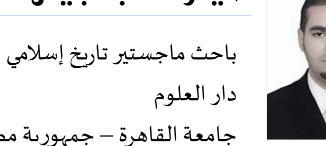
ISSN: 2090 – 0449 Online

DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

الدور الاستخباري للحمام الزاجل في الدولة الزنكية
(٥٢١ – ٥٧٧هـ / ١١٢٧ – ١١٨١م)



حيدر كتاب عبيس السلطاني

باحث ماجستير تاريخ إسلامي

دار العلوم

جامعة القاهرة – جمهورية مصر العربية

مُلَخَّصْ

إن العمل الاستخباراتي من الأعمال السياسية والعسكرية المهمة لأي دولة، وبما أن الدولة الزنكية كانت في فترة صراع دائم مع الصليبيين، فكان لابد من استخدام جهاز الاستخبارات لتحقيق نصر حاسم ينهي الوجود الصليبي من المنطقة العربية الإسلامية، فكانت وحدة الحمام الزاجل من الوحدات المهمة في جهاز الاستخبارات الزنكية، وكان لها دور كبير في توصيل المعلومات الاستخباراتية بأسرع وقت إلى القادة العسكريين، وعلى أساس هذه المعلومات يقوم القادة بوضع الخطط المناسبة لتحقيق النصر في المعارك، لذلك جاءت هذه الدراسة لكي تسلط الضوء على أهمية الحمام الزاجل ودوره الاستخباري في الدولة الزنكية، فلقد تطرق الكثير من الباحثين إلى الحمام الزاجل بشكل عام في فترات مختلفة، لكن لم يتم التطرق الى دور الحمام الزاجل الاستخباراتي في الدولة الزنكية، لذلك جاءت هذه الدراسة لتغطي هذه النقطة البحثية المهمة، فلقد تطرق البحث إلى التعريف بالدولة الزنكية بشكل مختصر، والتعريف بالحمام الزاجل (الهواري)، ومن ثَمَّ بيان الدور الذي لعبه الحمام في مجال المراسلة والاستخبارات، ودور الدولة الزنكية بتطوير عمله من خلال إقامة المطارات الكثيرة له، والمنتشرة على طول الامتداد الجغرافي للدولة الزنكية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٦	يناير	٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر:	٢٠	مارس	٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الهـواري، حمـام المراسـلة، الاسـتخبارات العسـكرية، تـاريخ البريـد، الحروب الصليبية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حيدر كتاب عبيس السلطاني. "الدور الاستخباري للحمام الزاجل في الدولة الزنكية (٥٢١-٥٧٧هـ/١١٢٧-١١٨١م)".- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والثلاثون؛ مارس ٢٠١٦. ص١٥٩ – ١٦٥.

مُقَدِّمَةٌ

يُعَدّ عمل الاستخبارات من الأعمال السياسية والعسكرية المهمة بالنسبة إلى أي دولة، سواء كانت في حالة سلم أم في حالة حرب، ولأنك لا تستطيع توفير الأمن الداخلي إلا بواسطة هذا الجهاز، فكلما كان الجهاز الأمني قويًا، كلما كانت الدولة أكثر أمانًا هذا من جانب، ومن جانب أخر أن دور جمع المعلومات، كبير جدًا في حسم الكثير من الحروب والمعارك، لما يعطيه من معلومات دقيقه حول العدو تساعد الدولة على التخطيط الصحيح. ولما كانت الدولة الزنكية (٥٢١ – ٥٧٧ هـ/ ١١٢٧- ١١٨١م) في فترة صراع دائم مع الصليبين، كان لابد من استخدام هذا الجهاز من أجل تحقيق الانتصارات في المعارك والأعمال الحربية، التي كانت تهدف إلى تحقيق نصر حاسم ينهي الوجود الصليبي في بلاد المسلمين.

لذلك جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على طبيعة العمل الاستخباري الذي كان معمولاً به في الدول الإسلامية عن طريق الحمام الزاجل، فالتطرق إلى مثل هكذا موضوع أمر في غاية الأهمية، فقد تطرق الكثير من الباحثين والمؤرخين إلى الدولة الزنكية من ناحية تاريخية وسياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وتسلسل للأحداث، إلا أن التعرض بالدراسة التحليلية الى دور جهاز الاستخبارات، وأهمية هذا الفئة كان قليلا باستثناء بعض الدراسات السطحية . ولان العمل الاستخباراتي عمل شاق، ويعتبر خط الدفاع الأول عن البلد، وهو الذي يحمي الدولة وجيشها، عندما تصدر

قرارات السلم والحرب المبنية على أساس معلوماتي صحيح، والتي توجه الجيش والسلطة السياسية نحو القرار الصحيح. ومن هنا تأتي أهمية الموضوع لمحاولة التعرف على عمل الحمام الزاجل في الدولة الزنكية وكيف كان له الدور الكبير في المعارك التي خاضتها الدولة الزنكية مع الصليبيين، والدور الذي لعبه الحمام الزاجل في توصيل المعلومات الاستخبارية للقيادات الزنكية، ومدى تأثير هذه المعلومات على مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية المحيطة بالدولة.

يُعَدّ **قيام الدولة الزنكية وتطورها السياسي** مدخلاً أساسيًا لدراسة الدور الاستخباري للحمام الزاجل في هذه الدولة، فبداية يجدر بنا الإشارة الى الاطار الجغرافي للدولة الزنكية، اذ ان الاتساع الجغرافي للدولة الزنكية يكشف لنا عن مدى أتساع نطاق سيادتها السياسية وتعدد الأقاليم التي سيطرة عليها، فقد خضعت لها مناطق بلاد الشام والجزيرة ومصر، وفي الشام والجزيرة ضمت لها مدن حلب، ودمشق، والموصل، وحماة، وحمص، ومعرة النعمان، وشيزر، وكفر طاب، ومنبج، والرقة، والباب، وبزراغة، وبانياس، وحوران، وغيرها وتاخمتها غربًا أمارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين ومملكة بيت المقدس، وفي الشمال جاورتها سلطنة سلاجقة الروم، أما في الشرق فقد وجد النفوذ العباسي والسلجوقي وامتدت الى النوبة جنوبًا وجبل نفوسه غربًا.[١]

وتمثل أتابكية عماد الدين زنكي مرحلة مهمة في التاريخ السياسي لبلاد الشام والجزيرة في مواجهة الوجود الصليبي، وأهتم بالجيش الذي يمثل عصب دولته فصارت لديه قوة عسكرية كبيرة، وتالف عناصره من الخرسانيين والتركمان، بالإضافة الى عناصر غير نظامية مثل الفقهاء والمتصوفة وغيرهم، وقد حرص زنكي على الحصول على مورد بشري ثابت لجيشه فعمل على فرض التجنيد الإجباري[٢]، على بعض المناطق، كذلك أحتوى جيشه على نظام الاستخبارات على نحو مكنه من معرفة الدقائق العسكرية لأعدائه.[٣] وقد ساهم عماد الدين زنكي بدور فعال ضد الوجود الصليبي في الجزيرة؛ حيث تمكن جيشه من أسقاط الرها سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م).[٤] فسقطت بذلك أولى الأمارات الصليبية وجاء ذلك إيذانًا بتهاوي البناء الصليبي بأسره فيما بعد.[٥]

وبعد مقتل زنكي على يد أحد حراسه عند أسوار قلعة جعبر[٦] في ٦ ربيع الآخر سنة (٥٤١ هـ/ ليلة سبتمبر ١١٤٦م) والذي يُعَدّ حدثًا هامًا ومؤثرًا في تطورات الأحداث في بلاد الشام والجزيرة. فقد طوت صفحة من الصراع الاسلامي الصليبي، وفي نفس الوقت أذن ذلك بتفكك دولة عماد الدين زنكي لتنقسم بين أبنائه سيف الدين غازي، ونور الدين محمود وقطب الدين مودود. ونصرة الدين أمير ميران[٧] وأبان الاضطراب الذي وقع بعد مقتل زنكي حيث تفرقت جيوشه؛ إلا أنه تم الاتفاق على تقسيم البلاد بين أبنائه على ان يكون سيف الدين غازي حاكمًا على الموصل، ونور الدين محمود حاكمًا على حلب، وقد دفعهم الى سرعة تدارك الأمر، الخوف من اغتنام الصليبيين الفرصة القائمة بالهجوم على الأعمال الشامية والجزرية[٨]، وقد أنضم عدد من القادة الى نور الدين محمود مثل، صلاح الدين الياغستاني، ومجد الدين بن الداية، وأسد الدين شيركوه، وسيف الدين سوار.[٩] وجميعهم لعبوا أدوار مهمة في تمكين توسيع الدولة، والسيطرة على حلب، وحمص، ومنبج، وحران، وحمص، وكافة أملاك عماد الدين زنكي في بلاد الشام. وهكذا بدأت الدولة الزنكية مرحلة جديدة من مراحل الصراع مع الصليبيين.[١٠]

وقد واجهت الدولة الزنكية في تلك الفترة مشكلات ومصاعب داخلية، فهناك الصراع على السلطة، وكذلك الحركات السياسية المناوئة لها متمثلة في نشاط الإسماعيلية النزارية المضادة . فقد أتبع نور الدين سياسة متسامحة تجاههم في أول الأمر، للاستفادة منهم ولكي يتجنب أثارة القلاقل في وجه دولته الوليدة، ولكن منذ سنة (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م) أتجه الى معاداتهم[١١]، وعمد الى رفع الأذان الشيعية الخاصة "حي على خير العمل" سنة (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م)[١٢]، بتأييد من العناصر السنية القيادية، مما أثار الإسماعيلية الذين وقفوا الى جانب الصليبيين ضده في معركة أنب في العام التالي مباشرة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)[١٣].

إضافة إلى ذلك اندلاع حركات ثورية اجتماعية ذات طابع فلاحي، ومن أمثالها حركة معز الدين المغربي سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٣م)[١٤]، الذي خرج على السلطة ولقيت تحركاته دعم الفلاحين في مدن الشام الكبرى، كدمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وغيرها، وعضد القطاع الفلاحي حركته بصورة كبيرة، ويؤكد البعض أن بعض الدوافع الاقتصادية وراءها.[١٥] ولاريب أن الدولة النورية أدركت مدى الأخطار المحدقة بها في صورة الاتجاهات المناوئة لها في الداخل، والصليبيين في الخارج، ومن ثَمَّ عملت على مواجهتها من خلال إقامة جهاز أمني قوي تنتشر فروعه في كافة انحائها، وأيضًا من خلال تكوين قوة عسكرية ضاربة قادرة على حماية حدودها بل والتوسع الخارجي، فكان لابد من استخدام وتطوير جهاز الاستخبارات عن طريق أدخال الحمام الزاجل وترتيب عمله لضمان سرعة وصول المعلومات الاستخبارية، في تلك الفترة لحماية الدولة من الأخطار المحيطة بها.[١٦]

الحمام الزاجل[١٧][١٨] (الهواري)[١٩]

يعتبر الحمام الزاجل، أو ما يسمي بالحمام الهواري من أبرز وسائل الاتصالات في العصور الوسطي، فقد استخدم في نقل الأخبار بشكل كبير واسع، وازدادت أهميته في العهد الزنكي، لسرعته في نقل الأخبار والرسائل فقد اعتني به المسلمون أشد الاعتناء، حيث وصف بأنه "ملائكة الملوك"[٢٠].

فقد استخدام عماد الدين زنكي الحمام الزاجل، لنقل الأخبار في حروبه التي خاضها ضد الصليبيين، ولكن بشكل قليل، ولم يكن للحمام الزاجل دور فعال نظرًا لعدم وجود عوائق للبريد آنذاك وصغر حدود مملكته.[٢١] أما عهد نور الدين فقد امتد على أطراف شاسعة من البلاد؛ مما جعله يوليه اهتمامًا كبيرًا لمعرفة أخبار المسلمين هنا وهناك ولاسيما إن الفرنج احتلوا بعض ثغور المسلمين والبلدان فكانت مثل الحواجز للبريد، ففكر في تفعيل الحمام الزاجل فأنشأ لها

الأوكار في سائر البلاد سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م)[٢٢]، وهو "أول من عني به وأراح الملوك"[٢٣].

عندما اتسعت دولته واحتاج إلى الوقوف على الأخبار أولاً بأول، وضع نظامًا محكمًا لنقل الأخبار بواسطة حمام الزاجل، فجعل أعداد منه في قلاع المدن وأبراج الحصون وأبراج الحراسة ومعها رجال موكلون بها، فإذا بدأ خطر أو وقع حادث أسرع الرجال بتطيير الرسائل بواسطة الحمام، فتصل نور الدين فيسرع بالاستعداد والخروج ويبعث أوامر، فكان له أحسن الأثر في سير الحروب والمعارك.[٢٤]

ومن أهم الأسباب التي حملت نور الدين محمود على تطوير عمل وحدة الحمام الزاجل هي:

١- أتساع أملاك نور الدين، حيث امتدت "من حدود النوبة ...همذان[٢٥]، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج"[٢٦] فحرص على معرفة أخبارها بأسرع وقت، لاسيما مصر، والتي كانت تتعرض من حين لأخر لغارات الصليبيين.

٢- حرص نور الدين على حماية القرويين في بلاد الشام من غارات الصليبيين المفاجئة، لذلك بنى الابراج على الطريق "وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهواري، فإذا رأوا من العدو أحد أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلا يبلغ العدو منهم غرضًا"[٢٧].

٣- حماية الثغور من غارات الصليبيين، ومعرفة تحركاتهم بأسرع وقت، إلا أن نور الدين "كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمرًا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه، فيصل الى المدينة التي هو فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك."[٢٨] ومما يؤكد ذلك أن الصليبيين هاجموا أحدى الثغور الشامية، فجاء الخبر لنور الدين في اليوم نفسه، فكتب رسالة على جناح طائر الى العساكر القريبة من هذا الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو، ففعلوا ذلك والفرنج امنوا لبعد نور الدين عنهم"[٢٩]

فيذكر العمري:[٣٠] "أن أول من اعتني بالحمام الهواري من الملوك الشهيد نور الدين محمود زنكي، ونقله من الموصل في سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م)، وفى سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م). عمم نور الدين الحمام الهواري في سائر بلاده وجعل له مراكز "فكانت مهمة الحمام الزاجل نقل الأخبار والرسائل إلى الآفاق في أسرع مدة وأيسر عدة.[٣١] فهو يعد من أفضل ما عرفه الإنسان وسهل له سبيل اتصالاته ونقل أخباره بسرعة وقتذاك ويسمى الحمام الهواري، لقدرته العجيبة على الاهتداء إلى عشه لو ابتعد عنه مسافات بعيدة وقد وصفه الجاحظ بقوله : "وللحمام من حسن الاهتداء وجودة الاستدلال وثبات الحفظ والذكرة وقوة النزاع إلى أربابه الألف لوطنه"[٣٢]، فأحسن المسلمون تربيته وتدريبه، لحمل الرسائل والبطاقات.[٣٣]

أما **تدريب الحمام** فكان يبدأ بعد اختياره وانتقائه صغيرًا، فتحمل الفراخ جائعة الى سطح أحدى الدور في منتصف النهار، وينثر الحب على السطح، ويوضع فوق السطح علم، وأشترط مدرب الحمام ان يكون العلم واضح اللون حتى يمكن الاهتداء اليه، وفي أغلب الاحيان كان اطلاق الفراخ بعد مدة من قص ريشها، على أن تطلق مثنى أي زوجين زوجين، بحيث تكون أحدهما: أحدث قصًا لريشها من صاحبتها، ثم يطلق المدرب الحمامة التي نما ريشها، فلا تلبث أن تعود حنينًا الى صاحبتها، وبذا يضمن المدرب تأليف الحمام وعودته الى أمكنه تدريبه وهي المزاجل.[٣٤]

وكانت لا تفتح **الرسالة** إلا للسلطان خشية أن يكون فيها سر، وكانت الرسالة تكتب على نسختين وترسل على دفعتين متباعدتين بينهما حوالي ساعة حتى إذا فقدت أو قتلت إحدى الحمامتين أو افترستهما الطيور الجارحة أو تم صيدها من قبل الأعداء أمكن وصول الحمامة الأخرى، وتكتب الرسالة مختصرة تحوي لب الكلام على ورق خفيف وتؤرخ باليوم والساعة وتوضع تحت جناح الحمام لحفظها من المطر.[٣٥]

وهناك طرق عدة استخدمت **لنقل الرسائل** عن طريق الحمام الزاجل، حيث جرت العادة على أن تحمل البطائق تحت أجنحة الحمام مفروزة ومثبتة بخيط رفيع وذلك لقصد حماية البطاقة من المطر ثم تطور الأمر وأصبحت البطائق توضع مثبتة في ذنب الطير وذلك مراجعة إلى أن البطاقة حينما توضع في هذا المكان تصبح في مأمن كما قال النويري[٣٦] في هذا الصدد إن البطائق تصبح "ضواحي وراء ضواحي وغطت سرها المودوع بكتاب سحبت عليه ذيول ريشها الضواحي" وكل هذه الإجراءات حفاظًا على سرية المعلومات.[٣٧]

وكان الايجاز أهم **ميزات الرسائل** التي ينقلها الحمام، فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والالقاب التي كانت تحفل بها الرسائل في ذلك العصر، ويكتفي بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب في صيغة مقتضبه كالتي تستعمل في البرقيات[٣٨]، وأكثر ما يحتاج الكاتب اليه في بطائق الحمام التاريخ، وأن يؤرخ بأجزاء اليوم والليلة، أذ ان كل واحد من الليل والنهار أثنتا عشر ساعة زمانية، وتطول بطول أحدهما وتقصر بقصره، ولكل ساعة منها أسم يخصها، كالشروق، وهو أول ساعات النهار، والغروب، وهو أخر ساعاته، والشفق، وهو أول ساعات الليل، والصباح، وهو أخر ساعاته، فينبغي للكاتب أذا كتب بطاقته من بطائق الحمام ان يكتب الساعة التي كتبت فيها من ساعات الليل، أما ساعات الليل فلا يتأتى فيها ذلك، لأن الحمام لا يسرح في الليل.[٣٩]

وبفضل الحمام الهواري واستخدامه تم حفظ الثغور من هجمات الفرنج فيذكر ابن الأثير:[٤٠] "إن طائفة من الفرنج نازلوا ثغرًا لنور الدين، فأتاه الخبر ليومه بفضل استخدام الحمام الهواري، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو، ففعلوا وانتصروا على الفرنج، وهم أمنوا لبعد نور الدين عنهم".[٤١]

ويذكر ابن القلانسي في حوادث سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) : "ان نور الدين محمود سار الى بانياس، وضيق الخناق على من بها من الصليبيين، وحاصرها قرابة شهر، وأنه خلال تلك الفترة كان يراسل أهل دمشق ونوابه فيها عن طريق الحمام الزاجل، ويطلعهم على سير المعارك الى أن تمكن من استردادها.[٤٢]

ومن مأثر نور الدين محمود أيضًا دخل المدينة المنورة سنة سبع وخمسين وخمسمائة ومعه وزيره على غفلة من أهلها، وأمر بإحضار رصاص عظيم، وحفر خندقًا عظيمًا حول الحجرة الشريفة كلها، وأذيب ذلك الرصاص وملأ به الخندق، فصار حول الحجرة الشريفة سورًا رصاصًا، ثم عاد إلى مكة، وقد بنى هذا الخندق حول قبر الرسول (ﷺ) حفظًا عليه وخوفًا من أن ينبشه الصليبيون أو ينقلوه إلى بلادهم، ويبدو أن الأنباء وصلته عن طريق الحمام الهواري بنية الصليبيين نبش قبر النبي (ﷺ).[٤٣]

فقد قام نور الدين محمود زنكي بإنشاء محطات للحمام الزاجل أذ وصل التراسل بالحمام الزاجل في عهد الى مرتبة البريد الاعتيادي بنوع مستوفي النظام، وأعد له مطارات وأبراج في كل ثلاثة عشر ميلاً (أي ٢١ كيلومتر تقريبًا) أقام لها نظارًا وحراسًا يراقبون وصول الحمام نهارًا وليلاً خوفًا من ان يمر عليهم وهم عنه غافلون[٤٤]، في أهم طرق الدولة، وجاء تنظيم المحطات على الشكل التالي:

١- بين القاهرة والإسكندرية.
٢- بين القاهرة ودمياط.
٣- بين القاهرة وأسوان.
٤- بين القاهرة ودمشق عن طريق غزة[٤٥] والقدس.[٤٦]
٥- بين دمشق وبرنه على نهر الفرات.
٦- بين برنه والقصر[٤٧].
٧- بين حلب والرحبة على نهر الفرات[٤٨].
٨- بين غزة والكرك[٤٩] على البحر الميت.
٩- بين دمشق وصيدا وبيروت وطرابلس.
١٠- بين دمشق وبعلبك[٥٠].
١١- بين حلب والموصل.
١٢- بين الموصل وبغداد.
١٣- ومن القاهرة إلى السويس.
١٤- ومن السويس إلى بلبيس[٥١].
١٥- ثم بلبيس إلى الشام عن طريق غزة.
١٦- ومن غزة إلى الخليل فطفس.
١٧- ومن طفس إلى الصنين[٥٢]، ثم دمشق.[٥٣]
١٨- ومن دمشق إلى حمص.
١٩- من الصالحية[٥٤] في دمشق إلى قطيا[٥٥].
٢٠- ومن حمص إلى معرة النعمان[٥٦].
٢١- ومن حلب إلى البيرة[٥٧].

وهكذا إلى بقية المدن الشامية[٥٨]، وكان في محطات هذه الخطوط نحو سبعة الأف حمامة، وفي كل محطة عدد كاف من الحمام حتى ترسل الرسائل الى المحطة التالية في حال وصولها وهكذا حتى تصل الى المحل المقصود، بحيث يكون سفر الحمامة بين محطتين فقط، وكان في كل محطة عدد من المستخدمين لمناظرة الحمام وخدمته، ونقل الرسائل من حمام لأخر، وتوزيع الحمام في محل اللزوم عند تكاثره في المحطة وغير ذلك، وكانت إدارة الحمام إدارة عامة يرأسها رجل من كبار الحكومة، وقيل أن محطة القاهرة كانت لا تخلو على الدوام من ألفي حمامة.[٥٩]

ويلاحظ قرب المسافات بين المطارات وقد يؤدي هذا الى تأخر الرسائل، لأن تسلم الرسالة من الحمامة وشدها الى الاخرى يستغرق وقتًا، ولكن ضياع الوقت لم يكن يذكر في شيء إلى جانب ما في هذه الطريقة من المزايا العظيمة، وأولها: أن قصر المسافة لم يكن يتطلب استخدام الحمام من النوع الزاجل الاصيل الذي يتحمل المشقة الشديدة وهذا النوع يباع بالثمن الغالي، ولذلك استخدم الحمام العادي، اضافة الى أن قصر المسافة يقلل الاخطار التي تعرض لها الحمام. هذا بالإضافة استعمال البريد السريع الذي كان لا يتوقف بالمطارات الفرعية، وكان ذلك بين عاصمة الدولة وعواصم الولايات؛ فإذا أراد السلطان مثلاً أن يبعث رسالة من القاهرة الى دمشق أطلق من أبراجه حمامة من حمام دمشق فتصل اليها الرسالة دون توقف.[٦٠]

حيث واجه عمل الحمام في نقل الرسائل العديد من **المعوقات** التي تحول دون مواصلة عمله في نقل البطائق ومن هذه المعوقات تربص الصيادين بهذا الطائر، وكذلك استبعاد الطائر للمسافة التي سيقطعها كي يوصل البطائق، هذا بالإضافة إلى إمكانية تعرضه إلى الجوارح من الطيور كالنسور والصقور وهو الأمر الذي أثبتته كتب المؤرخين في فترة العصور الوسطي، هذا بالإضافة إلى أن الطائر من الممكن أن يتألف مع جماعة أو سرب من أسراب الحمام أثناء الرحلة وينضم إليها مما يعوق وصول الرسالة، فلذلك كانت تتخذ الكثير من الإجراءات لسلامة وصول الرسائل.[٦١]

ولم تقتصر أهمية الحمام الهواري على **معرفة أخبار العدو** فحسب بل كانت له فائدة أخرى عظيمة وهي معرفة أخبار البلاد التابعة لنور الدين محمود، فقد كان نور الدين محمود لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظًا على الثغور ورعاية البلاد، وهو متشوق إلى أخبار مصر وأحوالها، فكانت تصله الأخبار عن طريق الحمام الزاجل[٦٢].

وكانت **المعلومات الاستخباراتية** التي وصلت المسلمين بفاقوس[٦٣]، عن طريق الرسائل التي نقلها الحمام الزاجل، دورها البالغ الأهمية في إنقاذ ثغر الإسكندرية من الحملة الصليبية المشتركة بين ملك بيت المقدس عمورية، ووليم الثاني، فكان وصول أسطول صقلية إلى الإسكندرية في ٢٧ يوليو ١١٧٤م/ ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ، حيث أنه من خلال تلك المعلومات بادر المسلمون بإرسال المدد إلى هناك تحت قيادة الأمير بدر الدين أيوب، والأمير فارس الدين نيزك فحل بالأسطول الصقلي الهزيمة في النصف الأخير من سنة

١١٧٤م، بداية عام ٥٧٠هـ، فسلم بذلك ثغر الإسكندرية ودمياط، والفضل يعود للحمام الزاجل وسرعة نقله للمعلومات[٦٤].

وبما أن المسلمين إبان **الحروب الصليبية** اعتمدوا كثيرًا على الحمام الزاجل في نقل أخبارهم إلى بعضهم بعضًا سواء كانت أخبارًا سعيدة كانتصارهم على الصليبيين، أم كانت أخبارًا سيئة كأن تلحق بهم الهزيمة، فأنهم في تلك الأثناء اعتادوا أن تمسح الحمامة وما تحمله من رسائل بالعطور والروائع الطيبة أما إذا تعرضوا إلى الهزيمة أو لحق بهم أمر سيئ، فإن الحمامة ورسائلها تلطخ بالسواد، فيعرف المسلمون بعدما يصلهم الحمام بالمدلول الذي أرسلته من أجله من غير أن يكتب ذلك في بطائنها[٦٥].

ومن ضمن أتقان عمل الحمام الزاجل انه كان لكل حمامة علامات تعرف بها تشبيهًا برسل البريد البري، وهذه العلامات من نقش لطيف يحمل أسم السلطان على منقار الحمامة وتوضع أرقامًا على أرجلها حتى يمكن تميزها[٦٦]، وكان التركيز على الحمام الزاجل الأزرق اللون في نقل الرسائل، ويستعمل في كتابة تلك الرسائل نوعًا خاصًا من الورق الرقيق يعرف بورق بريد الحمام[٦٧]، وأستخدم قلم الغبار[٦٨] في كتابة الرسائل التي ترسل عن طريق الحمام[٦٩].

وبالنسبة إلى المسلمين في الإمارات الإسلامية المجاورة للدولة الزنكية فقد استخدموا الحمام الزاجل في المراسلة فبينما بينهم أيضًا، فقد كان عماد الدين قد هاجم نصيبين[٧٠]، وكانت تابعة لحسام الدين بن تمرتاش بن ايغازي، فسار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داوود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا[٧١]، يستنجده وأرسل رسالة إلى جنوده المحاصرين في نصيبن يدعوهم إلى الصمود لثلاث أيام فقط و يصل بعدها لنجدتهم وبصحبته ابن عمه وقواتهما. وسقطت الحمامة التي تحمل الرسالة على المعسكر الزنكي، وانتهز عماد الدين زنكي الفرصة فحافظ على محتوى الرسالة، ولم يغير فيها إلا أن استبدل بالأيام الثلاثة عشرين يومًا، وأوصل الرسالة إلى المدافعين عن نصيبين، فقلت عزائمهم وقرروا الاستسلام وتسليم المدينة لعماد الدين سنة (١١٢٧م/٥٢١هـ)[٧٢].

ويقرر المؤرخون أن الحمام الهواري ترجع أهميته الاستخباراتية إلى سرعة نقله الخبر من بلد إلى آخر فهو أسرع المواصلات حيث أنه يقطع مسيرة عشرين يومًا في بضع يوم، هذا بالإضافة إلى أنه آمن على الرسائل وبذلك ساعد الحمام في حفظ ثغور المسلمين وبلادهم، ولهذا اهتم به حكام المسلمين اهتمامًا كبيرًا على طول عصورهم[٧٣]. وعلى هذا الأساس اعتبر الزاجل (الهواري) من الوحدات الاستخباراتية المهمة التي استخدمت في مجال الاتصال والمراسلة فترة الحروب والسلم، وله الفضل في كثير من الانتصارات التي حققها المسلمون على أعدائهم نتيجة سرعة المعلومات التي كانت تصلهم ويضعون الخطط اللازمة على هذا الأساس.

خاتمة

وخلاصة القول؛ أن الدور الاستخباري للحمام الزاجل في الدولة الزنكية، وبالأخص في فترة الحروب الصليبية في بلاد الشام إرتبط بميزان القوى في هذه البلاد، فإذا مال ميزان القوى لصالح الصليبيين، وظف المسلمون الحمام الزاجل لمعرفة تحركات أعدائهم وخططهم في أسرع وقت، ليعملوا على أفشالها. وعندما بدأ ميزان القوى يميل لصالح المسلمين منذ ظهور عماد الدين زنكي قام الحمام الزاجل بدور رائع في خدمة حركة الجهاد ضد الصليبيين، وساهمت الدولة الزنكية بدور كبير في تطوير وتحسين عمل الحمام الزاجل من خلال إقامة المطارات وترتيب عمله بشكل رائع ودقيق، وأن له الأثر الكبير في تحقيق الانتصارات على الجيش الصليبي، وذلك لسرعة نقله للمعلومات، وبفضله تم حفظ الثغور الإسلامية من خطر التعرض للهجمات الصليبية، ومن خطر الأعداء المتربصين بالدولة الإسلامية.

الهَوامِشُ:

(١) محمد مؤنس أحمد عوض، **في الصراع الإسلامي – الصليبي (السياسة الخارجية للدولة النورية)**، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩٨م، ص٣٢.

(٢) ابن العديم، **بغية الطالب**، تراجم السلاجقة، ص٢٦٣.

(٣) عماد الدين خليل، **عماد الدين زنكي**، ص١٩١- ١٢١.

(٤) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص٢٧٩.

(٥) محمد مؤنس أحمد عوض، **في الصراع الاسلامي الصليبي** (السياسة الخارجية للدولة النورية)، ص٣١.

(٦) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٧) محمد مؤنس أحمد عوض، **في الصراع الإسلامي الصليبي** (السياسة الخارجية للدولة النورية)، ص ٣٢.

(٨) ابن الاثير، **الباهر في الدولة الاتابكية**، ص٨٤.

(٩) ابن القاضي شهبه، **الكواكب الدرية في السيرة النورية**، تحقيق محمود زايد، بيروت، ١٩٧١م، ص١٢٢.

(١٠) أبن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص٢٨٥.

(١١) أبن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص٣٠١.

(١٢) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ترجمة محمود زنكي، ص١٣٠.

(١٣) المصدر نفسه، ص١٣١.

(١٤) ابن القاضي شهبه، **الكواكب الدرية**، ص١٩٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص١٩٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص١٩٨.

(١٧) حول معنى كلمة زاجل يرى بعض أنها كلمة عربية الاصل، وتعني الرامي أو الدافع، وهناك رأى بأن اصل الزاجل فارسي، وهي تعني قائد العسكر أو قائد العسكر أو قائد الجند، واستخدمت الكلمة للتعبير عن الحمام المستخدم في نقل الرسائل من دون تحديد سلالات معينة، كما هو جار في الوقت الحاضر، ثم أصبحت الكلمة تستخدم للتعبير عن الحمام صاحب قدرة الطيران العالية والسلالات المستخدمة في السباقات، كما أن الغرب عندما نقلوا تربية حمام الرسائل عن العرب قاموا باستخدام اللفظ نفسه ZAJEL، وأصبح هذا الاسم هو المتداول عالميًا: يُنظر: أشرف صالح محمد، **"سيرة الحمام الزاجل التاريخية"**، بحث منشور بدورية كان التاريخية، العدد الرابع، يونيو ٢٠٠٩م، ص٧٨.

(١٩) **الحمام الهواري**: وتسمى أيضًا بحمام المراسلة وهو أشهر أنواع الحمام، اذ يتميز عن غيره من الحمام بأنه ينقل الرسائل ويعود الى موطنه، مهما بعدت المسافة، ويطير مسافة الف كيلومتر، ويطير بدون انقطاع، لمدة ثلاث عشر ساعة، ويبلغ وزنه ستمائة وخمسين جراماً، ومنقاره عريض، مغطى بثنيات، وجسمه قوي ممتلي ولونه ازرق، أو بني، أو أبيض، والجناح والأكتاف فاتحة اللون مخطط باللون الأسود : للمزيد يُنظر: عبد الله محمد أحمد، **الحمام الزاجل بين البريد والأدب**، بحث منشور بمجلة العلوم الانسانية والاقتصادية، بجامعة السودان للعلوم والتكنلوجيا، العدد (١٣)، ٢٠١٢، ص١٧٢.

(٢٠) ابن كثير، أبى الفداء إسماعيل بن عمر (ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ب.ت. ص ٢٦٩، ج١٢.

(٢١) يوسف بن نصرة الله محمد، **الاستراتيجية العسكرية الاسلامية ضد الصليبيين حتى نهاية العصر الايوبي**، ص ٥٤.

(٢٢) السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت. ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، ج٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.، ص ٣١٣ : رنسيمان : **تاريخ الحروب الصليبية**، ج٢، ص ٦٧٧

(٢٣) ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل بن شاهين (ت. ٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، **كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٤م، ص ١١٧.

(٢٤) حسين مؤنس: **نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق**، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٤-١٤٠٤هـ

(٢٥) **همذان**: مدينة مشهورة من مدن الجبال في بلاد فارس، ومساحتها أربعة فراسخ في مثلها، وهواؤها لطيف، وماؤها عذب، وهي محل سرير الملوك السلاجقة: للمزيد يُنظر: القزويني، **أثار البلاد وأخبار العباد**، ص٤٨٣.

(٢٦) ابن الاثير، **الباهر في الدولة الاتابكية**، ص١٥٩.

(٢٧) ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، ج١، ص٢٨٣.

(٢٨) ابو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين**، ج٢، ص٣٢٩.

(٢٩) ابن الاثير، **الباهر في الدولة الاتابكية**، ص١٥٩.

(٣٠) ابن فضل الله العمري، **المسالك والممالك**، ص ٢٨٥.

(٣١) ليلى عبد الجواد إسماعيل، **موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية الحضارية** (الملك العادل نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٤م)، ج١٤، دار الفكر العربي، مكتبة مصر العامة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٤٥.

(٣٢) الجاحظ، **الحيوان**، ج٣، ص ٢١٤.

(٣٣) يوسف بن نصرة الله، **الاستراتيجية العسكرية الاسلامية ضد الحروب الصليبية حتى نهاية العصر الايوبي**، ص ٥٣.

(٣٤) عادل محمد نبهان، **دور الحمام الزاجل في الصراع الصليبي الاسلامي في بلاد الشام** (٤٩٠-٦٩٠هـ / ١٠٩٧-١٢٩١م)، بحث منشور بمجلة جامع القدس المفتوحة، للأبحاث والدراسات، العدد السابع، نيسان ٢٠٠٦، ص٣٩٢.

(٣٥) جرجي زيدان: **تاريخ التمدن الإسلامي**، ط٢، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٢٣٣.

(٣٦) النويري: **نهاية الأرب في فنون الادب**، ج١٠، ص ٢٨٠.

(٣٧) محمد بن حمدان الحربي: **الاستخبارات في الحروب الصليبية**، ص ١٦٣.

(٣٨) عبد الله محمد أحمد، **الحمام الزاجل بين البريد والأدب**، ص ١٤.

(٣٩) نظير حسان سعداوي، **نظام البريد في الدولة الاسلامية**، دار مصر للطباعة، ١٩٥٣، ص١٣٧.

(٤٠) ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية**، ص ٣٧.

(٤١) ليلي عبد الجواد إسماعيل، **الملك العادل نور الدين محمود**، ص ٤٥-٤٦.

(٤٢) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص٣٤٠-٣٤١.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٤٤) عبد الله محمد أحمد، **الحمام الزاجل بين البريد والأدب**، ص ١٧٧.

(٤٥) **غزة**: مدينة من مدن الشام، تقع جنوب فلسطين على ساحل البحر الاحمر المتوسط: للمزيد يُنظر: القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت. ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، **أثار البلاد واخبار العباد**، بيروت، دار صادر، ص٢٢٧.

(٤٦) عادل محمد علي الشيخ حسين، **حمام البريد أو حمام المراسلة عند العرب**، ص ٧-٨.

(٤٧) **القصير**: ضيعة بين حمص ودمشق ومجاورة للحدود السورية، اللبنانية وفيها جبل اسمه جبل السعير: للمزيد يُنظر: **ياقوت معجم البلدان**، ج٤، ص٤١٧.

(٤٨) **الرحبة**: تقع في ديار بكر على الفرات بن الرقة وعانة، وقد خربت المدينة القديمة، وقام شيركو بن أحمد ببناء مدينة جديدة تبعد عن الرحبة القديمة بمقدار ميل وهي بلدة صغيرة لها قلعة، كما أنها منطقة التقاء القوافل بين العراق والشام، للمزيد يُنظر: سماح بنت سعيد عبد القادر باحوبرث، **الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك**، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، ٢٠١٠م، ص ٢٨.

(٤٩) **قلعة الكرك**: تقع القلعة عند الطرف الجنوبي الشرقي للبحر الميت، على بعد ٢١ كيلو متر جنوبي مدينة عمان، وأسمها أصله أعجمي للمزيد يُنظر: محمد حمزة محمد صلاح: **الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر** (٤٩١-٩٢٣هـ)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠٠٩م، ص٧٢.

(٥٠) **بعلبك**: مدينة من مدن الشام بينها وبين دمشق مسيرة ثلاث أيام وهي حصينة في سفح جبل عليها سور مبني بالحجارة عظيم، وكانت تنقل منها الميرة إلى بلاد الشام: للمزيد يُنظر: عبد الرؤوف جبر القططي، **السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٢م، ص٦٦: ويُنظر أيضًا: عبد الحميد العابد، **علاقة الفقهاء السنة بالدولة العباسية في عصرها الأول**، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الحاج لخضرياتة، الجزائر، (٢٠٠٨-٢٠٠٩)، ص ٨٦.

(٥١) **بلبيس**: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام يُنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص ٥٦٧.

(٥٢) **الصنمين**: قلعة من أعمال دمشق في أوائل حوران، بينها وبين دمشق مرحلتان، يُنظر: **معجم البلدان** لياقوت الحموي، ج٣ ، ص ٤٣١.

(٥٣) عادل محمد الشيخ، ص ٨٠٧.

(٥٤) **الصالحية**: وهي أول قرى غوطة دمشق، وتقع بسفح جبل قاسيون، وأول من تملكها أل قادحة المقادسة المهاجرون من فلسطين أبان الحروب الصليبية، وقيل سميت بهذا الاسم لانهم كانوا من الصالحين: للمزيد يُنظر: ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون الدمشقي الصالحي (ت٩٥٣هـ)، **ضرب الحوطه على جميع الغوطة**، رسالة نشرها وعلق عليها محمد أسعد طلس، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، عدد ٢١ شباط ١٩٤٦م، ص١٥٨.

(٥٥) **قطيا**: قرية في طريق مصر وسط الرمل قرب الفرماء: للمزيد يُنظر ياقوت الحموي، ج٤، **معجم البلدان**، ص ٣٧٤.

(٥٦) **معرة النعمان**: وهي مدينة حصينة لها أسوار من الحجر، وهي منسوبة إلى النعمان بن بشير الصحابي، وكان والي حمص وتلك النواحي كانت المعرة قديمًا تسمى ذات القصور، فمات ابن النعمان فيها، فقيل لها معرة النعمان، للمزيد يُنظر: ابن العديم الصاحب كمال الدين عمر ابن أحمد بن أبي جرادة (٥٨٨هـ/٦٦٠هـ) **بغية الطلب في تاريخ حلب**، حققه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص ١٢٧-١٣٣.

(٥٧) **البيرة**: هي قرية قرب سميساط، بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة لها رستاف واسع: يُنظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص ٦٢٤.

(٥٨) علي محمد الصلابي، **الدولة الزنكية**.

(٥٩) أشرف صالح، **سيرة الحمام الزاجل التاريخية**، ص ٨٠.

(٦٠) أشرف صالح، **سيرة الحمام الزاجل التاريخية**، ص ٨٠.

(٦١) محمد بن حمدان الحربي: **الاستخبارات العسكرية في الحروب الصليبية**، ص١٦٣.

(٦٢) ليلي عبد الجواد إسماعيل، **الملك العادل نور الدين محمود زنكي**، ص ٤٦.

(٦٣) فاقوس: وهي مدينة من أعمال مصر: ابو شامة، **الروضتين في اخبار الدولتين**، ج١، ص٤٣٩.

(٦٤) محمد بن حمدان الحربي، **الاستخبارات العسكرية في الحروب الصليبية**، ص١٦٦.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٦٦) أشرف صالح، **سيرة الحمام الزاجل التاريخية**، ص٧٩.

(٦٧) عادل محمد على الشيخ حسين،، ص ٨.

(٦٨) **قلم الغبار**: وهو القلم الذي يكتب به بطائق الحمام، وسمي بذلك لدقته كان النظر يضعف عن رؤيته كما يضعف عن رؤية الشيء عند ثوران الغبار وتغطيته له وهو الذ يكتب به القطع الصغيرة من ورق الطير وغيره وبه، وبعضهم يسميه قلم الجناح: للمزيد يُنظر: القلقشندي، **صبح الاعشى في صناعة الانشا**، ج٦، ص٢٤١؛ عبد الله محمد أحمد، **الحمام الزاجل بين البريد والأدب**، ص١٧٧.

(٦٩) المصدر نفسه، ص١٧٧.

(٧٠) **نصيبين**: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل مسيرة ستة أيام: يُنظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص ٢٣٣.

(٧١) **كيفا**: بلدة وقلعة عظيمة على مشرفة نهر دجلة بن أمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر: يُنظر: ياقوت الحموي، ج٢، **معجم البلدان**، ص ٣٠٦.

(٧٢) ابن الأثير: **الباهر في الدولة الأتابكية**، ص ٣٦-٣٧ ؛ مشيط عبد الله الحربي، **الحيل والتكتيك الحربي**، ص ٧٣.

(٧٣) محمد بن حمدان الحربي، **الاستخبارات في الحروب الصليبية**، ص ١٦٢.